أم الفستان الأحمر

أم الفستان الأحمر

اتجهتُ إلى موقف الباص أمام مشفى المجتهد لانتظر مجيء الميكرو، وذلك ليقلّني إلى بيتي بعد انتهاء يوم عمل شاق، كانت شمس تموز تلعلع في وسط السماء، أمَّا السيارات من كُلِّ الحجوم، تَمُرُّ نافثة الدخان معكرةً الجو. وقفتُ أراقِبُ فارغَ الصبر والعرق يتدفق من جسمي آخرَ الشارع الذي سيظهرُ منه الميكرو، إن شاء الله.

وكانت ترتسم على وجهي تكشيرة، تجعل من وجهي بشعا جدا، وماذا يُنتظر ممن عمل لثماني ساعات؟!، لم يكن في مخيلتي إلا غرفتي القَذِرةُ المملة، وفراشيَ القذرُ الذي سيسمحُ لي بقليل من الراحة، كنت أتخيل كيف أني متمددٌ فوقه مستريح.

طال الانتظار، والميكرو لم يأتِ، بحيث أن المنتظرين قد شعروا معي بالضيق، بل إنهم مثلي قد أخذوا ينفخون بشدة.

ارتفع رأسي!، أجل ارتفع!، وكأن شيئا أجبرَ عظامِ الرقبة على التحرك صوبَ الأعلى، فانتعش وجهي، بل أصابته حالةٌ من الذهول، عندما رأيت امرأةً تلبِسُ فستانا أحمرَ وقد انفردَ لدرجةِ أنه أظهرَ اللحمَ الأبيضَ بجلاء، رأيتها تغادرُ أعلى شقةٍ من البناءِ المقابل، حيث أخذتْ تتهادى على الدرج، وأنا أتابِعُها بإثارةٍ جعلت مزاجيَ معتدلاً فعلاً، ثم تنعطف وتغيب على الدرج المقابل، فأنصرفُ كليًّا لمراقبةِ ظهورِها الجديد، وهكذا على الدرجِ الثاني فالثالث، وهي لا تكادُ ترحمُني بظهورِها حتى تغيبَ في الدرج المقابل، لِتَجعَلَني أترقبُ بشوقٍ حارٍّ، وهكذا. وعيوني جاحظةٌ، وفمي مفتوحٌ، وقد أدركتُ لعابيَ الذي كاد يسيلُ في اللحظةِ الأخيرةِ، فرشفته ثم بلعته.

نسيت الميكرو، وقررت إن أتى الميكرو تأجيل ذهابي إلى بيتي طالما أني أكحل عيني وأغذي مخيلتي بمشهد امرأة جميلة تصر في كل ما تفعله على أن يرى جمالها كل من في الشارع.

وصِرْتُ أتمنى أن تظهرَ مقابلي أخيراً، ولا سيما أنها تجتازُ آخر درج، كان الجوُّ يتحول شيئًا فشيئًا إلى ألطف، حتى أن الواقفين بجانبي، أخذوا ينعمون النظر في هذه المرأة التي تنـزل أمامهم بذهول مفرط.

ظهرتْ، أول ما ظهرت، ساقُها البيضاء، واندفع خلفَه باقي الفستان الأحمر اقتحمت المدخل، وكانت السيارات المارة تحجب عني الرؤية، فأضطر لـمطِّ رقبتـتي لكي لا يضيع مني أيُّ مشهد أو تفصيلة أو حركة، اخترقت المدخلَ، ومشتْ باتجاهِ الرصيف، وأنا أراقبُها بعناية فائقة، حتى توقفت عند حافته منتظرة.

رآها سائق تكسي، الرصيفُ العالي يقف عائقًا يجعل مروره إلى المرأة أمرًا صعبًا للغاية، ولم يكن من إمكانية في أن يتجاوز صوبها إلا بأن يصعد فوق الرصيف المرتفع، ولكنه لم يستطع الاحتمال، فغامر وأدار المقود صوبها بنـزق شديد، فدخل بالرصيف العالي، بحيث أنه أتلف الجزء الأمامي من سيارته، لتصطدم به سيارةٌ قادمة من الخلف، لعدم انتباه سائقها أيضًا، وينحرف ميكرو كان قادمًا من الخلف عن الحادث الذي جرى أمامه، وينقلب على الرصيف.

كل ذلك بلمح البصر، يا إلهي! وقد وقع باص مليءٌ بالركاب بالمواجهة مع الكارثة، ولم يتوفرِ انتباهٌ كافٍ عند السائقِ ليتجنَّبَه إلا بانحرافِه بكليتِه يائساً صوبَ الموقفِ الذي نقفُ به، فأُصِبْتُ مع الواقفين بالهلع الشديد وحمدنا الله، لأنه استدرك وانعطفَ مغيراً اتجاهَه عنا، ولكنْ لم ينفعنا حمدنا لله ولم يأتِ الأمرُ على مزاجنا، فاختل توازنُ الباص وانقلبَ على الموقف حتى هرسنا جميعنا.

وليس ذلك فقط، بل إن الانتباه قد غادر سائقي السيارات القادمة من الخلف أيضاً، حتى أنهم أخذوا يصطدمون بالحادث المروع، وكأن أم الفستان الأحمر تلهِمُهم بالقيام بعملية إنتحارية.

انهرس جسمي هرسًا، صار مثل العجينة، وتدفق دمي حتى آخر قطرة، بل إن دماغي سال على أرض الشارع مختلطًا بلحمي، فانتهزتْ عيوني فرصةَ انهما الوحيدتان اللتان بقيتا سالمتين، وركضَتا بعد أن تعثرتا بأنفي، كان صوت سيارة الإسعاف يلعلع، وأخذت عيوني تتجاوز الجثث المهروسة والأيادي والأقدام لِتراقب ما حلَّ بأم الفستان الأحمر التي وصلت إليها الآن سيارة الإسعاف، وقفت أمامها ثم فتح السائق الباب وراح يدعوها بشدة.

كان الجو، في هذه الأثناء، قد أخذ جرعة كافية من الانعاش حقا، فصار مزهرًا ربيعيًّا ولطيفًا جدًّا.

اقتربت أمُّ الفستان الأحمر من السيارة وابتسامة عريضة مرتسمة على وجهها، بينما البودرة تتطاير من جسدها الأبيض، ثم ركبت بجانب السائق حيث ظهر من تحت باروكة الشعر الأشقر خصلة شعر بيضاء، وأطبقت فمها بسرعة لئلا تقع تركيبة الأسنان الصناعية.

أخذت سيارةُ الإسعاف تبتعدُ بأمِّ الفستانِ الأحمرِ هاربةً من الضجيجِ، آخذةً معها جرعة الإنعاشِ كلها، فعادَ الجوُّ في لحظةٍ واحدةٍ إلى وضعِه السابقِ من الحرِّ والاختناق، وارتسمتْ على عيونـيَ التي طُرِحَتْ أرضًا تكشيرةٌ، نسيتُ معها ما أصابَ الجوَّ من إنعاش.